البيئة وأثرها
فى العقول

يستمد الإنسان تصوراته، وتتربى إدراكاته على حسب ما يراه ويحيط به من المشاهدات والمعقولات. وعلى قدر بلوغ ذلك من نفسه، واستيلائه على حواسه، تكون درجة الإدراك لديه. فإذا كانت المشاهدات كثيرة مختلفة، كانت قوة الموازنة وحب الاستطلاع والرغبة فى البحث أعظم وأدعى إلى نمو العقل والإدراك، وكبرت فى نفسه ملكة التمييز بين الأشياء، وصار ذلك شبه خلق له، فيصبح وقد تربى على نوع خاص من الذكاء والملاحظة، وتشكلت نفسه وإدراكاته ومعلوماته بهذا الشكل الخاص، الذى ينبئ عن حياته العامة التى كانت له فى هذه البيئة الخاصة. وكانت تصوراته وتشبيهاته مأخوذة عن ذلك، وأفكاره ومعقولاته صورة من الاجتماع الذى عاش فيه، وأثرًا من آثار تلك البيئة. وباختلاف البيئة يكون اختلاف الناس فى عقولهم وإدراكهم وتربيتهم: فليس من يعيش بين العلماء كمن يعيش بين الجهلاء، ولا من نشأ فى بيت كريم كمن نشأ بين السوقة والسفلة.

لذلك كان من عمل الناقد، أن ينظر إلى هذه الأسباب ليتمكن من الحكم على آراء الكتاب والمفكرين حكمًا صحيحًا، وليعرف أسباب المؤثرات الفعالة. فالذى عرف البلاغة "بأنها ما بلغ بك إلى الجنة وعدل بك عن النار"، كان متأثرًا بالبيئة الاجتماعية الدينية التى عاش فيها. فلا يصح أن يؤخذ هذا التعريف كما هو، وإلا ما هى الصلة بين البلاغة وبين الجنة والنار؟ والذى قال: "إن دراسة الأدب بأجمعه من تاريخ وفنون، ونم شعر ونثر، إنما

هى وسيلة لفهم كتـاب الله تعالى" لا يصح أن يعد من الأدباء، لأن أدبيًا من الأدباء الذين يفهمون الأدب، ويقولون إنه صورة النفوس والعقول، وحالة من أحوال الاجتـماع، لا يقول ذلك. وإنما هذه نتيجـة التربية العقلية عند فـقهاء المسلمين، الذين اشتغلوا بالأدب وجمعه وعنوا به من أجل ذلك، ونشروا هذا الرأى وأشاعـوا هذه الفكرة، فأخـذها الناس عنهم كمـا هى بدون بحث ولا نقد. وكن يمكن الـرجوع إلى الأدب وبلاغة العـرب لفهم ما فى كـتاب الله تعالى، بدون أن يكون ذلك الغرض الفذ من دراستها. ولكن أدباءنا وأكثرهم من الفقهاء صرفوا همتهم إلى الوجهة الدينيـة فقط. هذا أثر للبيئة الاجتماعية وأثر اتجاه العقول والأفكار اتجاهًا خاصًا. وهذا يفسر معنى صلة هذه الأسباب بالأدب والنقد.

الإنسان كما قلنا ثمرة البيئة الطبيعية والاجتماعية، والأدب والبلاغة من شعر ونثر ومن كتابات اجتماعية وفلسفية وغيرها - من أثر العقول والقرائح - ثمرة من ثمار الإنسانية. ونتيجة تـربية العقول والنفوس. فإذا كانت الأمة فى مبدأ تربيتها العقلية وأول نشأتها كالطفل، لا يعرف إلا ما يقع عليه نظره، ولا يدرك إلا ما يخـيط به، أصبحت مـعلوماتها منحـصرة فى ذلك، وخيـالاتها مقصورة على مـا ترى وتسمع حولها. فإن لم تكن محبـة للبحث والتنقيب، ولا راغبـة فى الاستطلاع، بقـيت فى هذا النوع من التربيـة الأولية، وبعض الأمم يمـوت ويعيش وهو فـى شبـاب الحيـاة وطفـولة التربيـة. لأن البـيئـة الاجتماعـية لم تدفعه إلى حب الاستطلاع، ولم تولد فيه البـحث فى معرفة الجمال وفهمه.

والعرب فى عيشتهم وحيـاتهم البدوية الصرفة، لم يخرجوا عن الدائرة

التى وضعتهم فيها طبيعة بلادهم، ولم يروا غير هذه الصحراء الواسعة وما توحيه إلى النفوس من العظمة والهيبة، والغموض الذى تضل فيه الظنون، ثم هذا البسط "اللانهائى" الذى يحمل على الظن بأن الحياة لا تتغير، وكأن الإنسان يخلق ويموت وهو على حال واحدة من العيش، وأن هذه الحياة البدوية الساذجة هى كل شىء، وأن الشجاعة والكرم والمروءة هى كل فضيلة، وكأنه ليس وراء ذلك من فخر، وكأن العصبية والإغارة على الأعداء والانتصار عليهم هى كل ما يفهم من معنى الشجاعة، وأن العربى فى حريته واستقلاله أفضل إنسان وأكرم نفس وأرقى مخلوق. كذلك تكونت خيالات العربى على ما يرى وما يحيط به من حيوان ونبات، ولم يكن لديه من الفرصة ما يمكنه من معرفة أحوال الأمم الأخرى، فنشأ قانعًا بما لديه، راضيًا بحالته. لأنه ظنها أفضل وأكمل من غيرها. فلم يرغب فى تغيير حالته الاجتماعية، ولم يأخذ عن غيره، لأن ذلك لم يكن متيسرًا له فى حالته الأولى، ولأن الحاجة لم تحمله على ذلك لاقتناعه بما لديه من كل شىء حتى فى العلوم والمعارف، ولأنه كان يرى سعادته فى هذه الحال. والإنسان إن لم تدفعه الحاجة لا يميل إلى العمل، ولا يحب التعب. كل ذلك أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية عند العرب. وهى بنفسها التى نراها فى بلاغاتهم وأشعارهم. فقد امتلأت خيالاتهم بما كان يحيط بهم، ولم تتعد أفكارهم البيئة التى كانوا يعيشون فيها. فكان إذا وصف أو أشبه أحدهم شيئًا أخذ خياله وفكره مما يحيط به، وذكره على سذاجته لأنه كان يميل فى الافتنان والصناعة إلى إلهاماته، وما توحى إليه فطرته، فكانت السذاجة تظهر فى كل شىء من كلام وشعر وخيال. ومع أن هذه السذاجة البدوية هى عيب الشعر العربى لأن الحقائق "العريانة" كما يقولون ليست مقبولة لدى كل نفس، ولا

يتذوقها كل إنسان خصوصًا فى الشعر والبلاغة، إذ لابد من الافتنان فى إظهار المعانى المقصودة، ولابد أن يعترى المتفنن من الحيرة والشك فى الوصول إلى أغراضه ما يحمله على البحث والتنقيب حتى يصل إلى ما يقرب من الإتقان والكمال والإبداع. مع أن هذا هو عيب الشعر العربى البدوى، فهو أيضًا كل ما فيه من الجمال. لأن السذاجة الفطرية، أو الكلام المطبوع الذى تظهر فيه طبيعة الإنسان كما هى، له نوع خاص من القبول والاستمراء. وقد تدعو هذه الحال إلى الإعجاب.

هذه السذاجة التى اكتسبها البدوى من البيئة التى يعيش فيها هى روح الشعر العربى التى اكتسبته هذه العذوبة وهذا الجمال اللذين لا يوجدان دائمًا فى الشعر الحضرى. لأن إطلاق العربى لنفسه العنان يقول كما توحى إليه فطرته،، ويملى على ضميره من السذاجة المقبولة المحبوبة السائغة على النفوس، هو السر فى حياة هذه البلاغة ومظهر جمالها[1].

---

(١) مما يصح أن يكون دليلا على أثر البيئة أنه قدم أحد شعراء البادية على أمير من أمراء الحواضر فمدح الأمير بقوله:

أنت كالدلو لا عدمناك دلوًا ... من كثير العطا قليل الذنوب
أنت كالكلب فى الحفاظ على الود ... وكالتيس فى قراع الحروب

فهم بعض أعوان الأمير بقتله، فقال الأمير خل عنه فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنًا وقد لا نعدم منه شاعرًا مجيدًا. فما أقام بضع سنين فى سعة عيش وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق الآخذ بمجامع القلوب وهو فى زعم بعضهم صاحب الأبيات التالية:-

يا من حوى ورد الرياض بخده ... وحكى قضيب الخيزران بقده
دع عنك ذا السيف الذى جردته ... عيناك أمضى من مضارب حده
كل السيوف قواطع أن جردت ... وحسام لحظك قاطع فى غمده
إن رمت تقتلنى فأنت مخير ... ما ذا يعارض سيدًا فى عبده =

فانظر هذه التشبيهات وأثر البيئة فيها وما رسمته فى نفس الشعراء، مثل ما قال بعضهم وقد حلق رأسه.

فأصبح رأسى كالصحيرة أشرقت عليها عقاب ثم طار عقابها

وقالوا إن هذا البيت من المعانى المحدثة المقبولة لدى الأفكار والعقول. فالحال السياسية والحال الاجتماعية، والحال الفكرية. لها أثر عظيم فى البلاغات والأدب، لأنها سائرة وراء الاجتماع "حذو النعل بالنعل" كما يقول المثل العربى. وقد ظهر بعض هذه الآثار فى الشعر العربى، لأن الشعر هو كل الأدب العربى، أو هو مجموع الصورة العامة لبلاغة العرب ولحركات أفكارهم. والبيئة الاجتماعية أقل أثرًا وظهورًا من البيئة فيه، بدليل أن الاجتماع تغير تغيرًا عظيمًا، وتناوبته الممالك والدول، والشعر العربى لم يتغير فى جملته ولم تعتوره أطوار الاجتماع. بل كان الشاعر الحديث يسطو على المعنى القديم فيصقله فى قالب جديد من الألفاظ، ويكسوه ثوبًا آخر لينسب إليه. ونحن لانرى هذا أثرًا للاجتماع، وإنما هو صرب من رقى الخيال، لأنه لا يدل على حالة الاجتماع السياسية، ولا على أى نوع من حياة الأمة. وكان من الممكن أن نرى تقلبات الدول والحوادث الكثيرة التى ملأت تاريخ المسلمين

= هذا أثر البيئة فى النفس والخيال، والشعر العربى الجاهلى كله معطر بأثر الصحراء وما بها. وهل أدل على ذلك من قول امرئ القيس:

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هى نصته ولا بمعطل
وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقى المذلل
وتعطو برخص غير شئن كأنه أساريع ظبى أو مساويك أحسل
كبكر المقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل

ظاهرة فى بلاغـاتهم. ولـكنا لم نر فى بلاغـات العـرب أصـدق وأدل على الاجتماع من الشعر الجاهلى، لأن الشعر إذ ذاك كان بمثابة الحديث والمسامرات اليومية والكلام الاعتيـادى. وفى مدة الأمويين كان يدل على شىء من الحالة الاجتماعية دلالة إجمالية. وكـان أثر البيئة الاجتماعية ظاهراً بعض الشىء فى المدح والذم بين الشعراء، وفى قصـائدهم إلى خلفاء بنى أمية. ولم يكن دالا تمام الدلالة على الحياة، لأن هذه كـانت مناقشات شخصية لأهواء شـخصية. وكان أكثر ذلك ناشئًا من مـيل الشعراء إلى التكسب، ولم يكن فى الشعراء، أو لم يكد يوجـد بينهم من كـان ذا أغراض اجـتمـاعـية ترمى إلى إصـلاح الاجتماع، أو إلى تربية الأفكار وتهذيبها. وكل ما كان من الصدق فى نفوس الشعراء كـان عبارة عن عواطف نفـسية، يرجع أكثرها إلى شـىء من العقائد الدينية، أو إلى تأييـد مذهب سياسى وكراهة إحـدى البيوتات الحاكمـة. كما مدح الفرزدق زين العابدين فى قـصيدته المعروفة، عندما تظاهر بعدم مـعرفته هشام بن عـبد الملك، لما رأى من إقـبال الناس على على بن الحـسين فـقال: "من هذا الشاب الذى تبرق أسـرة وجه كأنه مرآة صينيه تتراءى فـيها عذارى الحى وجـوههـا" فقـال الفـرزدق: "هذا الذى تعـرف البطحـاء وطأته" الخ القصـيدة. ومع ذلك فقـد كان الشعـر مدة الأمويين أقـرب إلى الجد منه إلى التسليـةوالمجون. وكانت لا تزال الـصبغـة العربية ظاهرة فـيه وفى مجـموع أوصافـه: من الصراحـة وحرية القـول، وعزة النفـس وغيرها مـن الأخلاق العربية.

أما فى زمن العبـاسيين فقد ظهـر أثر البيئة فى نوع خـاص من الشعر. لأن بيئة خاصـة أثرت فى الشعر: وهى بيئة المجون واللـهو والطرب. وأشهر

شعراء هذا العصر كانوا من هؤلاء، كأبى نواس وبشار وابن الضحاك وغيرهم ممن أكثروا من وصف الغلمان والخمر ومجالس اللهو وكانت هذه حال البلاغة فى العصر الأول العباسى، مما لا يكاد يخرج عن التسلية والمجون. وكانت مجالس الخلفاء والأمراء غاصة بالغناء والمغنيين، وكانت الأشعار التى تغنى لا تخرج عن وصف الحب والغرام والخمر، وكانت المجامع فى ذلك العصر أشبه بالجنان ونعيمها. وشجع الخلفاء والأمراء الشعراء على ذلك، فانكب هؤلاء على هذا النوع من الشعر الوجدانى، وانتشر الغناء، وكانت مجالسه حافلة بالأدباء والشعراء، (تشبه المجتمعات التمثيلية عندنا اليوم). ولم يؤثر انتشار الفلسفة فى الشعر إلا فى أواخر الدولة العباسية عند مثل المتنبى وأبى العلاء، أى عندما أخذت العقول تنضج وترقى، وترى وتفهم من الأدب غير ما كان يراه ويفهمه الأولون: غير أن هذا العصر لم يطل، ولم نكد تظهر فيه المذاهب العربية وأثر الإسلام فى الرقى، حتى وقفت حركة العلم والأدب، وهزمت العجمية العربية بسيلها الجارف، فوقفت حركة العقول والأفكار.

أما أبو نواس وأمثاله فكانوا شعراء وجدانيين، وخلعاء متهتكين، لم يهتموا بحالة الاجتماع ولم يكن عندهم من التربية والتعليم ما يساعدهم على ذلك، ولم تدفعهم البيئة إلى هذا النوع من الشعر(١).

(١) ولم يخطر ببال أحدهم أن يدعو الناس إلى الشعر الاجتماعى، ولا إلى الشعر التمثيلى، كما كانت الحال مدة لويس الرابع عشر فى فرنسا، فإنه وإن كان الغرض من التمثيل إذ ذاك التسلية والانشراح، فلم يغب عن الشعراء والكتاب أن يجيئوا فى أشعارهم وقصصهم بالعبرة ونقد الاجتماع، وكتبوا الكتابات النقدية الممتعة، وأتقنوا الصنعة، ولكن فى غير الألفاظ بل فى بث الأفكار وتأثيرها، كما فعل موليير فى قصصه الهزلية التى كان ينتقد فيها الاجتماع وما فيه من الرذائل. فقد كانت قصصه مضحكة سائغة خفيفة الروح، ومع ذلك كان بها من الحكم والمواعظ ونقد الاجتماع أكثر مما فيها من الهزل=

ولم يفـهم الناس هذا الضـرب من الأدب الاجتـماعى. وكـان إذا أراد أحدهم أن يقول شيئًا من ذلك أو ما يقرب منه أفصح إفصاحًا، وبث الموعظة على أنها موعظة ونصيحـة. ولو أنه فكر فى وضع أفكاره ونصائحه فى قصة لكانت أوقع وأشد فعلا فى النفس من قص الكلام قـصًا وسرد سردًا. ولكن العقـول لم تكن نضجت بعد، ولم يصل الأدب إلى الحـالة التى كانت تلهم الشعراء نوعًا جديدًا فى الكلام والصناعة على أن بهـا من جمال القول ومتانته ما لو وضعه شاعر عصرى فى قـالب قصصى لوصل إلى ما وصل إليه موليير وغيره.

* * *

=والسخـرية. ولا تزال قصص موليـر من أبدع القصص فى نوعها، ولا يزال لـها شأن كبير فى الأدب: ذلك لأن كبار الكتاب كانوا من كـبار المفكرين. وقد كانت سير بعضهم الشخصية لا تقل عمـا كان عليه أبو نواس وأمثاله. فإن حياة موليـر المنزلية معروفة تكاد تفوق فى المجون والهزل ما كـان عليه بعض شعراء العباسيين. ولكن موليـر كان شاعرًا اجتماعيًا وكاتبًا خلقيًا برع فى نوع من الهزل النقدى الاجتماعى.

obeikandl.com